



## الباب الثاني

### حياة البخاري العامة

« محمد بن اسماعيل كان أمة من الأمم  
ديننا فاضلا يحسن كل شيء »

العجلى



## مكانة البخارى فى الصلاه والورع

ان سبر نبوغ البخارى ووصوله الى المكانة العلمية الفريدة انما هو حبه لله ورسوله ولو لم يكن محبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعاليمه • لما استطاع أن يصل الى هذه المكانة العلمية فى الأحاديث فمن المعلوم أن طالب العلم لا ينبغ النبوغ القوى الا فيما حبه الى نفسه وانشرح له صدره •

وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم كلها غياضة بالدعوة الى التقوى ومكارم الأخلاق •

ولا يكون مبالغا من يقول بأن البخارى رحمه الله اتخذ الرسول قدوته • وطبق تعاليمه على نفسه فاجتمعت فيه كل المعانى الكريمة •

فهو مكثر العبادة ، يصلى فيسلم وجهه وقلبه لله وينصرف بكليته اليه فى خشوع المؤمن السعيد بعبادته وقراءته •

عن محمد بن أبى حاتم الوراق قال : دعى محمد بن اسماعيل الى بستان بعض أصحابه فلما حضرت صلاة الظهر صلى القوم ثم قام للتطوع فأطال القيام فلما فرغ من صلاته رفع ديل قميصه فاذا زنبور قد أبره فى ستة عشر موضعا وقد تورم من ذلك الجسد وكان آثار الزنبور فى جسده ظاهرة • فقال له بعضهم : كيف لم تخرج من الصلاة فى أول ما أبرك ؟

فقال : كنت فى سورة فأحببت أن أنمها وعن نسج بن سعيد قال(١) :

---

(١) فى الطبقات وتاريخ بغداد واما فى المقدمة « مقسم » •

كان محمد بن اسماعيل البخارى اذا كان اول ليلة من رمضان يجتمع اليه أصحابه فيصلى بهم ويقرأ في كل ركعة عشرين آية وكذلك الى أن يختم القرآن ، وكان يقرأ القرآن في السحر في كل ثلاث ليال . وكان يختم بالنهار في كل يوم ختمة ويكون ختمه عند الافطار في كل ليلة ويقول عند كل ختم دعوة مستجابة (١) ، وهذا الاتصال الدائم بالله عن طريق العبادة أضفى عليه حسن المعاملة مع الناس فكان شديد الورع في معاملته يخاف الشبهات .

قال أبو سعيد « بكر بن منير » : كان حمل الى محمد بن اسماعيل بضاعة انفدها اليه فلان اجتمع بعض التجار اليه بالعشية ، فطلبوها بربح خمسة آلاف درهم فقال لهم : انصرفوا الليلة فجاءهم من الغد تجار آخرون فطلبوا منه تلك البضاعة بربح عشرة آلاف درهم فردهم وقال : انى نويت البارحة أن أدفع الى الذين طلبوا منى أمس بما طلبوا أول مرة وقال : لا أحب أن أغير نيتى (٢) ، وعن عبد الله بن محمد الصيارفي : كنت عند محمد بن اسماعيل في منزله فجاءته وأرادت دخول المنزل فعثرت على محبرة بين يديه فقال لها : كيف تمشين ؟ قالت : اذا لم يكن طريف كيف أمشى ؟ فبسط يديه وقال : اذهبي فقد أعتقتك . فقيل له يا أبا عبد الله أغضبتك ؟ فقال : أرضيت نفسي بما فعلت (٣) .

فما أروع هذا السمو في المعاملة ، شعر احساسه الدينى المرهف بأنه أغضب الجارية باعتراضه التأنيبي الرقيق اليها ، فكفر عن ذلك باعتاقها حتى يرضى نفسه الطيبة النقية ويقول : وراقه سمعته يقول لأبى معشر الضيرير : اجعلنى في حل يا أبا معشر فقال : من أى شىء ؟ فقال : رويت حديثا يوما عنك . فنظرت اليك وقد أعجبت به وأنت تحرك

(١) تاريخ بغداد ج ٢ ص ١١ .

(٢) طبقات الشافعية ج ٢ ص ١٠ .

(٣) مقدمة الفتح ج ٢ ص ١٩٥ لابن حجر .

رأسك ويديك فنتبست من ذلك قال : أنت في حل — يرحمك الله يا أبا عبد الله (١) \*

وعن وراقه : سمعته يقول ما اغتبت أحدا قط منذ علمت أن الغيبة حرام \*

قال بكر بن منير : سمعت محمد بن اسماعيل البخارى يقول : انى الأرجو أن ألقى الله ولا يحاسبنى انى اغتبت أحدا (٢) \* وسمعه وراقه يقول : لا يكون لى خصم فى الآخرة فقال له : ان بعض الناس ينقمون عليك التاريخ ويقولون فيه اغتاب الناس فقال : انما روينا ذلك ولم نقله من عند أنفسنا \* وقد قال : النبى صلى الله عليه وسلم بتئس أخو العشيبة (٣) ويقول ابن حجر : كان البخارى فى كلامه فى الرجل توق زائد وتحرب بليغ فمن تأمل كلامه فى الجرح والتعديل فان أكثر ما يقول : سكتوا عنه ، فيه نظر ، تركوه ، ونحو هذا \*

وقل أن يقول : كذاب أو وضاع وانما يقول كذبه فلان « ورماه فلان » يعنى بالكذب وهذا من شدة ورعه \*

وعن الذهبى : أبلغ تضعيفه فى المجروح منكر الحديث \* ويقول البخارى : (٤) كل من قلت عنه منكر الحديث فلا تحل الرواية عنه ، وأكسبه ورعه التحرى فى الدقة والأمانة العلمية قال وراقه سئل عن خبر حديث فقال : يا أبا فلان ترانى أدلس وقد تركت عشرة آلاف حديث لرجل فيه نظر وتركت مثلها أو أكثر منها لغيره لى فيه نظر ؟ وقد نفى النوم عن عينيه نفس أبيه مشغولة بالعلم والعبادة ومكارم الأخلاق ، قال وراقه : اذا كنت معه فى سفر يجمعنا بيت واحد الا فى القبط ، فكنت أراه يقوم فى الليلة الواحدة خمسة عشرة مرة الى عشرين

(١) تاريخ بغداد ج ٢ ص ١٣ \*

(٢) الطبقات ج ٢ ص ٩ لابن السبكي \*

(٣) البداية والنهاية ج ١١ ص ١١٩ \*

(٤) الطبقات ج ٢ ص ٩ لابن السبكي \*

مرة \* وفي كل مرة يأخذ القداحة غيرى ناراً في يده ويسرج ويخرج أحاديثه فيعلم عليها ثم يضع رأسه \* فقلت : انك تحمل على نفسك كل هذا ولا توقظني ؟ فقال : أنت شاب فلا أحب أن أفسد عليك نومك وكان يصلى وقت السحر ثلاث عشرة ركعة ويوتر منها بواحدة \* وكان معه شيء من شعر النبي صلى الله عليه وسلم (١) \*

وهذه الحالة النفسية من قيامه مرات بالليل تمثل مدى اهتمامه بالعلم وتركيز الذهن فيه فكلما تذكر شيئاً سجله وهذا خلق العلماء المنصرفين للتأليف والعلم ، وما أكرم خلقه وشعوره في معاملته لتابعه وراقه في محافظته على راحته فلا يقلقه ويؤثر أن يصلح المصباح لنفسه وما أتقاه وأصفى نفسه فقبل أن يبدأ حياته العلمية في الليل يصفى نفسه بركعات تقرباً الى ربه في وقت الصفاء في السحر وهذا هو نهج المحدث الذي يعيش مع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم \*

### كرم البخارى وزهده

ورث البخارى عن والده ثروة ضخمة مطهرة فلم يستغلها في التمتع والتلذذ بالمذات الدنيوية بل عاش متقشفا زاهداً في الترف الدنيوى ، أكثر ما ينعم به في طعامه أن يأكل مع الخبز سكرة ولم يكن هذا التقشف كاذباً وطريقاً خداعاً الى الشح بالمال وادخاره كما يتوارى فيه بعض الناس وإنما كان التقشف الصادق « ودليله الزهد في المال وانفاقه في أوجه البر والاحسان مؤمناً بقوله تعالى : « وما عند الله خير وأبقى » « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » \*

يقول البخارى : كنت أسئغل في كل شهر خمسمائة درهم ، فأنفقها في الطلب وما عند الله خير وأبقى (٢) \*

(١) تاريخ بغداد ج ٢ ص ١٣ \*

(٢) الطبقات ج ٢ ص ١١ \*

وقال : وراقه كنا بفربر وكان أبو عبد الله يبنى رباطا (١) مما يلي بخارى فاجتمع بشر كثير يعينونه على ذلك وكان ينقل اللبن فكانت أقول : يا أبا عبد الله انك تكفى ذلك ، فيقول هذا الذى ينفعنى ، وكان ذبح لهم بقرة فلما أدركت انقدور دعا الناس الى الطعام فكان معه مائة نفس أو أكثر ولم يكن علم انه يجتمع ما اجتمع وكنا أخرجنا معه من « فربر » خبزا بثلاثة دراهم وكان الخبز إذ ذات خمسة أمان بدرهم فألقيناه بين أيديهم فأكل جميع من حضر وفضلت أرغفة صالحة ، وكان قليل الأكل جدا كثير الاحسان الى الطلبة مقرط الكرم (٢) ويتبين من بين سطور هذا القول مشاركته في عمل الخير بالمحافظة على ثغور المسلمين وكرمه المفرط فاستحق اكرام الله له بوضع البركة في طعامه .

والبخارى دائما لا يؤثر الدنيا على الآخرة ولا يرضى أن يبيع دينه بدنياه فهو بعيد النظر في خطواته يضحى بالدنيا الفانية من أجل الآخرة الباقية ، يقول وراقه عنه : انه ورث من أبيه مالا جليلا وكان يعطيه مضاربة (٣) فقطع غريم خمسة وعشرين ألفا فقيل له استعن بكتاب الوالى فقال : ان أخذت منهم كتابا طمعوا ولن أبيع دينى بدنياى ثم صالح غريمه على أن يعطيه كل شهر عشرة دراهم وذهب ذلك المال كله (٤) واستبدل البخارى أمواله أضعافا مضاعفة في سجل الحسنات وكان مصير هذه الثروة الجلييلة التى ورثها أن أقرضها لله ابتغاء وجهه ورضوانه وأصبح غنيا برضاء الله له . وبما هداه اليه من ثروة علمية قال عمر بن حفص الأثقف : كنا مع محمد بن اسماعيل بالبصرة نكتب الحديث ففقدناه أياما : فطلبناه فوجدناه في بيت وهو عريان وقد نفذ ما عنده ولم يبق شيء فاجتمعنا وجمعنا له الدراهم حتى اشترينا له ثوبا وكسوناه

(١) فى مختار الصحاح الرباط ما تشد به الدابة والرباط أيضا - المرابطة وهى ملازمة الثغور ضد العدو . ورباط الخيل مرابطتها .  
(٢) ترجمة البخارى ص ١٣ ط المنيرية .  
(٣) مضاربة فى المال وهى القراض « مختار الصحاح » .  
(٤) مقدمة فتح البارى ج ٢ ص ١٩٤ .

ثم اندفع معنا في كتابه الحديث (١) \* والكريم قريب من الله وهو معه  
يرزقه من حيث لا يحتسب تأخرت نفقته حتى جعل يتناول حشيش  
الأرض فلما كان في اليوم الثالث يقول : أتانى رجل لا أعرفه فأعطانى  
صرة فيها دنانير (٢) \*

ووطد البخارى نفسه على أن يكون في ذروة الثقة الأطهار الأبرار  
بكل ما تشمله التقوى من المعانى السامية النبيلة حتى يكون ربانبا  
يدعو فيستجاب له :

وهذا المنهج الذى رسمه لحياته وطبقه أتم تطبيق كان ينادى به  
ويدعو المسلمين اليه ويريد أن يكون كل مسلم متحليا بالتقوى التى  
تؤهله لاستجابة الدعاء منه ، ولا ينبغى للمسلم أن يكون غير ذلك  
يقول وراقة قال البخارى : « ماينبغى للمسلم أن يكون بحالة اذا دعا  
لم يستجب له » والدعوة الى التقوى والعبادة وتذكر الموت وحسن  
الخلق كانت طبيعته ودعوته التى دائما يدعو اليها حتى فيما أثر عنه من  
أشعار قليلة قال الحاكم ابو عبد الله (٣) : قرأت بخط أبى على المستملى  
وأنشد البخارى :

فعسى أن يكون موتك بغته  
ذهبت نفسه الصحيحة فلته  
لا تكن كلبا على الناس تهر  
وهناء نفسك لا أبالك أفجع

أغتنم في الفراغ فضل ركوع  
كم صحيح رأيت من غير سقم  
قال وأنشد أيضا :  
خالق الناس بخلق واسع  
وقال :  
أن تبق تفجع بالأحبة كلهم

(١) تاريخ بغداد ج ٢ ص ١٣ .

(٢) الطبقات ج ٢ ص ١١ .

(٣) الطبقات الشافعية ج ٢ ص ١٥ ومقدمة الفتح ج ٢ ص ١٩٦ .

فأشعاره (١) تدعو الى لزوم عدم ضياع الوقت بل ينبغي اشغاله بالعبادة وأن يكون المسلم صاحب خلق حسن يسلم الناس من شرمه وضرره « وينتفعون بخيره وبره » \*

### مهارته واستعداده للجهاد

والبخارى الذى اهتم بحفظ الحديث وفهمه اهتم بتطبيق ما أمر الله به ورسوله فاتخذ هذا منهجا فى سيرته فكانت حميدة للغاية رائعة فى كل جوانبها \*

عرف قيمة الجهاد فى الاسلام وشجاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ومهارته فى الحرب فاتخذه القدوة الحسنة فتعلم استعمال آلات الحرب وأتقن الجهاد ونبغ فى أشق أمور الحرب وأرقاها حينئذ رماه الرمى « وكان فيه الممتاز على غيره بحيث لا يخطئ الهدف اذا رماه مرات عديدة » (٢) واهتم بثغور المسلمين الاهتمام البالغ ولم يشغله العلم عن ذلك وهكذا النفوس الكبيرة كما يقول ابن سينا : لا يشغها شئ عن شئ والنفوس النقية بيارك الله لها فى وقتها بفضل الاخلاص والعمل \* قال وراق البخارى : رأيت استلقى ونحن « بفربر » فى تصنيف كتاب التفسير وكان أتعب نفسه فى ذلك اليوم فى التخريج فقلت له : انى سمعتك تقول : ما أتيت شيئا بغير علم فما الفائدة من الاستلقاء ؟ قال : أتعبت نفسى اليوم وهذا ثغر خشيت أن يحدث فيه حدث من أمر

العدو فأحببت أن أستريح وأخذ أهبة وان غافصنا العدو « فاجأنا على غرة » كان بنا حراك وقال : كان ابو عبد الله يركب الى الرمى كثيرا فما أعلم فيما رأيت فى طول ما صحبتته أخطأ سهمه الهدف الا مرتين ، بل كان يصيب فى كل ذلك ولا يسبق قال : ركبنا يوما الى الرمى ونحن بفربر فخرجنا الى الدرب الذى يؤدى الى الفرضة فجعلنا نرمى فأصاب سهم أبى عبد الله وتد القنطرة التى على النهر فانشق الوتد فلما رأى

(١) ترجمة البخارى المطبعة المنيرية ١٦ \*

(٢) ترجمة البخارى المنيرية \*

ذلك نزل عن دابته فأخرج السهم من الوتد وترك الرمي وقال لنا :  
 أرجعوا • فرجعنا • فقال لى وهو يتنفس الصعداء : يا أبا جعفر لى  
 اليك حاجة فقلت نعم • قال : تذهب الى صاحب القنطرة فنقول : انا  
 أدخلنا بالوتد ، فنحب أن يأذن لنا فى اقامة بدله ، أو تأخذ ثمنه وتجعلنا  
 فى حل مما كان منا • وكان صاحب القنطرة حميد بن الأخضر فقال لى :  
 ابلغ أبا عبد الله السلام وقل له : أنت فى حل مما كان منك ، فان جميع  
 ملكى لك الفداء • فأبلغته الرسالة فتهلل وجهه وأظهر سرورا كثيرا •  
 وقرأ ذلك اليوم للغرباء خمسمائة حديث وتصدق بثلاثمائة درهم (١) •

### قضية البخارى مع محمد بن يحيى الذهلى

محمد بن يحيى الذهلى شيخ المحدثين بنيسابور ومن تلامذته  
 البخارى ومسلم بن الحجاج ومجلسه فى نيسابور قبلة العلماء ومجمعهم  
 العلمى وعندما قدم البخارى نيسابور كان محمد بن يحيى الذهلى من  
 المرحبين به العارفين قدره فى علمه وصلاحه فأوصى الناس بالاستفادة  
 من علم البخارى - وما كان يدور بخلده : أن مجلس البخارى سيحظى  
 بالاقبال الفائق حتى ينصرف الناس الى مجلسه فيحصل الخلل فى  
 مجلس الذهلى •

قال الحسن بن محمد بن جابر « قال لنا الذهلى لما ورد البخارى  
 نيسابور • اذهبوا الى الرجل الصالح فاسمعوا منه فذهب الناس اليه  
 وأقبلوا على السماع منه حتى ظهر الخلل فى مجلس الذهلى فحسده  
 بعد ذلك وتكلم فيه » (٢) •

وكان أثر فتنة القول بخلق القرآن كما هو رأى القاضى أحمد بن  
 أبى داود المعتزلى ومن معه من المعتزلة الذين ينكرون الصفات القديمة  
 لله ومنها الكلام خوف تعدد القدماء على زعمهم ، وما دروا أن الممنوع  
 هو تعدد الذوات لا الصفات لذات واحدة وكانت هذه الفتنة قد ظهرت

(١) تهذيب الاسماء ج ١ ص ٧٥ والطبقات ج ٢ ص ١٠ •

(٢) طبقات الشافعية ج ٢ ص ١١ لابن السبكي •

في عهد المعتصم والواثق وأوائل عهد المتوكل وكانت مثار خلاف المعتزلة في مقابل أهل السنة القائلين بقدوم القرآن - كلام الله القديم معناه ومدلوله قديم وهو نوع من أنواع صفة الكلام النفسية القديمة القائمة بذاته تعالى .

وكان مع المعتزلة الحكام المتأثرون بهم وعلى رأسهم المأمون وامتحن فيها كبار أهل السنة ومنهم الامام أحمد بن حنبل واحمد بن نصر الخزازي وأبو يعقوب البويطي واستعر أوار الفتنة حتى أدت الى مختلف أنواع التعذيب واستمرت من سنة ٢١٨ - ٢٣٤ هـ حتى أخمدها المتوكل وانتصر أهل السنة ونهى عن الكلام في هذه المسألة والنهي عن الكلام في مشاكل علم الكلام هو شأن السلف فقد ضرب عمر بن الخطاب من يتكلم في القدر وطرده وقال مالك للسائل عن معنى الاستواء : الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة وهذا هو منهج أحمد ابن حنبل كما هو منهج البخارى .

والقرآن كلام الله غير مخلوق كما عليه أهل السنة والحق هو ما ذهب اليه الامام البخارى . وهناك فرق بين القرآن وبين القراءة كما يقول البخارى : يقال فلان حسن القراءة وردىء القراءة ولا يقال حسن فالقرآن ولا ردىء القرآن فالقديم القرآن وهذا (١) ما قال به السلف وأما التلفظ فذهب أهل السنة بل جميع الأمة الى أن التلفظ بالقرآن أى حرفية اللفظ وصوته الذى تنطقه ألسنتنا وتلفظ به وتكتبه أيدينا حادث غير قديم ولا عبرة لما ينسب الى الحنابلة عن طريق جماعة من غلاة الحشوية من أنه قديم أيضا فهي رواية شاذة معارضة لصريح العقل ومنافية لصحيح النقل وما روى عن الامام أحمد رضى الله عنه من رميه من زعم ذلك بالاعتدال والكفر فعلى تسليم صحته وأنه ليس من وضع الحشوية التى انتسبت ظلما اليه وأساعت أبلغ الاساءة لمذهبه ليس محمولا على ظاهره بل المراد منه التنفير من التصريح به والزجر

(١) مقتبس عن كلام مقدمة البخارى لفضيلة الشيخ عبد الغنى يتصرف ص ٨٧ .

عن الخوض فيه خشية أن يتأثر ويجره ذلك الى القول بمذهب الاعتزال وانكار صفة الكلام القديمة أو خشية أن يتأول متأول ويحمله على مذهب المعتزلة ويشنع بقائله ويؤكد ذلك قول ابن السبكي في ترجمة الحسين بن علي الكرابيبي صاحب الشافعي (١) •

قيل للكرابيبي « ما تقوله في القرآن قال كلام الله غير مخلوق فقال: إنه السائل فما تقول في لفظ القرآن ؟ فقال : لفظك به مخلوق فمضى السائل الى أحمد بن حنبل فشرح له ما جرى فقال هذه بدعة والذي عندنا أن أحمد بن حنبل ، رضى الله عنه أشار بقوله هذه بدعة الى الجواب عن مسألة التلغظ اذ ليست مما يعنى المرء وخوض المرء فيما لا يعنيه من الكلام بدعة فكان السكوت عن الكلام فيه أجمل وأولى • ولا يظن بأحمد رضى الله عنه أنه يدعى أن اللفظ الخارج من بين الشفتين قديم • ومقالة الحسين هذه قد نقل مثلها عن البخارى والحارس بن أسد المحاسبى ومحمد بن نصر المروزي وغيرهم فمن جراء فتنة خلق القرآن وما كان لها من أثر في اهانة كثير من الصالحين تغالى بعض العامة واشتبه عليه فبدعوا كل من قال بحدوث ما يمس عوارض القرآن •

وقد استغل محمد بن يحيى الذهلى كراهية النفوس لمن يتكلم في القرآن فأراد أن يوقع البخارى في هذا الأمر حتى ينفر الناس عن مجلسه وينسبوه الى الاعتزال •

قال الحافظ بن عدى (٢) ذكر لى جماعة من المشايخ أن محمد بن اسماعيل لما ورد نيسابور واجتمع الناس عنده حسده بعض ثيوخ الوقت فقال لأصحاب الحديث ان محمد بن اسماعيل يقول : لفظى بالقرآن مخلوق فلما حضر المجلس قام اليه رجل ، فقال : يا أبا عبد الله ماتقول فى اللفظ بالقرآن مخلوق هو ؟ أو غير مخلوق ؟ فأعرض عنه البخارى ولم يجبه ثلاثا • فألح عليه • فقال البخارى القرآن كلام الله

(١) طبقات الشافعية ج ١ ص ٥٢ •

(٢) الطبقات ٢ ص ١١ ومقدمة الفتح ج ٢ ص ٢٠٣ •

غير مخلوق وأفعال العباد مخلوقة والامتحان بدعة فشغب الرجل وقال قد قال لفظى بالقرآن مخلوق وشغب الناس وتفرقوا عنه ، فالبخارى يلتزم لمذهب السلف فيتخرج عن الخوض صراحة فيما يثير الفتن ويعرض عن السائل ويعترض عليه مبينا له بأن الامتحان في مثل هذا الأمر انما هو بدعة وهذا رأى السلف كالامام مالك والامام أحمد فالسكوت عند عدم الاحتياج اليه سنة ولكن عند الاحتياج اليه يضطر العالم لتبين الصواب وهذا هو ما رآه البخارى وقال محمد بن يوسف الفربرى (١) •

سمعت أبا عبد الله محمد بن اسماعيل يقول ان أفعال العباد مخلوقة فقد حدثنا على ابن عبد الله حدثنا مروان بن معاوية حدثنا أبو مالك عن ربعى بن حراش عن حذيفة قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله يصنع كل صانع وصنعه قال أبو عبد الله وسمعت عبيد الله بن سعيد يقول « ما زلت أسمع أصحابنا يقولون أن أفعال العباد مخلوقة قال أبو عبد الله البخارى حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة فأما القرآن المتلو المبين المثبت في المصاحف المسطور المكتوب الموعى في القلوب فهو كلام الله غير مخلوق قال تعالى « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » زاد في المقدمة قال : وقال اسحق بن راهوية أما الأوعية فمن يشك انها مخلوقة ؟ وقال في الطبقات وقال البخارى يقال فلان حسن القراءة وردىء القراءة ولا يقال حسن القرآن وردىء القرآن وانما ينسب ذلك الى القرآن لأن القرآن كلام الرب والقراءة فعل العبد وليس لأحد أن يشرع في أمر الله بغير علم زعم بعضهم أن القرآن بالفاظنا وألفاظنا به شىء واحد والتلاوة هي المتلو والقراءة هي المقروء فقليل له أن التلاوة فعل القارىء وعمل التالى فرجع وقال ظننتهما مصدرين ثقيل له هلا أمسكت كما أمسك كثير من أصحابك ، ولو بعثت الى من كتب عنك واسترددت ما أثبتت وضربت عليه فزعم أن كيف يمكن هذا ؟ وقال قلت

(١) تاريخ بغداد ج ٢ ص ٣١ والطبقات ج ٢ ص ١١ ومقدمة الفتح ج ٢ ص ٢٠٣ .

ومضى فقلت له كيف جاز أن تقول في الله شيئاً لا يقوم به شرح وبيان  
إذا لم تميز بين التلاوة والمثلو؟ فسكت إذ لم يجد عنده جواباً •  
وقد حقق التاج السبكي في طبقاته (١) موقف البخارى فقال كان  
البخارى على ما روى فيه ممن قال لفظي بالقرآن مخلوق وقال محمد  
ابن حسن الزهلى : من قال وزعم أن لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع  
وانما أراد محمد بن يحيى والعلم عند الله ما أراد أحمد بن حنبل من  
النهي عن الخوض في هذا ولم يرد مخالفة البخارى وان خالفه وزعم  
أن لفظه الخارج من بين شفتيه المحدثين قديم فقد باء بأمر عظيم والظن  
به خلاف ذلك وانما أراد هو وأحمد وغيرهم من الأئمة النهي عن  
الخوض في مسائل الكلام • وكلام البخارى عندنا محمول على ذكر ذلك  
عند الاحتياج اليه فالكلام عند الاحتياج اليه واجب والسكوت عنه  
عند عدم الاحتياج اليه سنة فافهم ذلك ودع خرافات المخرفين واضرب  
صفحا عن تمويهات الضالين الذين يظنون أنهم محدثون وأنهم عند  
السنة واقفون وهم عنها مبعدون •

وكيف يظن بالبخارى أنه يذهب إلى شيء من أقوال المعتزلة وقد  
صح عنه فيما رواه الفربرى وغيره أنه قال انى لأستجهل من لا يكفر  
الجهمية؟ ولا يرتاب المنصف في أن محمد بن يحيى الذهلى لحقته آفة  
الحسد التى لم يسلم منها الا أهل العصمة وقد سأل بعضهم البخارى  
عما بينه وبين محمد بن يحيى فقال البخارى كم يعترى محمد بن يحيى  
الحسد في العلم والعلم رزق الله يعطيه من يشاء • • ولقد أبان البخارى  
عن عظيم ذكائه حيث يقول وقد قال له أبو عمرو بن الخفاف أن الناس  
خاضوا في قولك فقال : يا أبا عمرو من زعم أنى قلت لفظي بالقرآن  
مخلوق • فهو كذاب فانى لم أقله الا أنى قلت أفعال العباد مخلوقة  
قلت : تأمل كلامه ما أذكاه ومعناه والعلم عند الله انى ثم أقل أن لفظي  
بالقرآن مخلوق لأن الكلام في هذا خوض في مسائل الكلام وصفات  
الله لا ينبغى الخوض فيها الا للضرورة ولكن قلت أفعال العباد مخلوقة  
وهى قاعدة مغنية عن تخصيص هذه المسألة بالذكر فان كل عاقل يعلم

(١) طبقات الشافعية ج ٢ ص ١٢ •

ان الفاظنا من جملة أفعالنا وأفعالنا مخلوقة ولقد أفصح بهذا المعنى في رواية أخرى صحيحة عنه رواها حاتم بن أحمد الكندي فقال سمعت مسلم بن الحجاج فذكر الحكاية المتقدمة وفيها أن رجلا قام الى البخارى وسأله عن اللفظ بالقرآن ؟ فقال أفعالنا مخلوقة وألفاظنا من أفعالنا وفي الحكاية انه وقع بين القوم اذ ذاك اختلاف على البخارى فقال بعضهم قال : لفظى بالقرآن مخلوق وقال آخرون لم يقل قلم يكن الانكار الا على من يتكلم في القرآن وقد اضطر البخارى لأن يسكن الفتنة بخروجه من نيسابور الى بخارى وقد روى انه لما قام مسلم بن الحجاج وأحمد بن مسلمة من مجتس محمد بن يحيى بسبب البخارى • قال الذهلي لا يساكننى هذا الرجل في البلد فخشى البخارى وسافر ، فنجد أن البخارى في محنته هذه لم يقترب ائما وأن ما أثير حوله أنما هو وليد الحسد من النفوس البشرية ومحمد بن يحيى رحب بالبخارى عند قدومه ولكن الشيطان للانسان عدو مبين فحسده عندما رأى أنه احتل مكان الصدارة والتف حوله القوم وتركوا الذهلي فاستغل اثاره النفوس وحساسيتها بالنسبة لفتنة القرآن وتابعه على ذلك الذين انتقدهم البخارى وجرحهم بالتضعيف واستعملوا التشويش على العامة الذين لا يفرقون بين القرآن والقراءة وكان البخارى دقيقا في تعبيره ملتزما مذهب السلف حيث أعرض عن السائل أولا ثم لما ألح عليه بين له أن السؤال بدعة وأجابه اجابة بيّنة لأن أفعال الرجال مخلوقة وألفاظنا من أفعالنا وكان في اجابته الضمنية الدليل على صدق قوله ومع ذلك فقد آثر السفر الى بخارى حتى لا تكون فتنة وهو في ذلك لم يخالف السلف بل كان على مذهب أستاذه الامام أحمد الذى يرى أن التبرع بالكلام فيما يثير الجدل بالنسبة الى صفات الله انما هو بدعة والقرآن عند محمد ابن اسماعيل هو كلام الله غير مخلوق قال محمد بن نعيم (١) سأل محمد ابن اسماعيل لما وقع في شأنه ما وقع عن الايمان فقال قول وعمل يزيد وينقص والقرآن كلام الله غير مخلوق وأفضل الصحابة أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على وعلى هذا حبيبت وعليه أموت وعليه أبعث ان شاء الله •

(١) التهذيب ج ٩ ص ٥٣ لابن حجر •

## اعتزاز البخارى بعلمه

### ومحنته مع أمير بخارى خالد بن أحمد الذهلى

ترك البخارى نيسابور ايثارا للسلامة وعدم الفتنة وذهب الى بلدته بخارى واستقبل أروع استقبال « فنصبت له أنقباب على فرسخ من البلد واستقبله عامة أهل البلد حتى لم يبق مذکور ونثر عليه الشراهم والدنانير » (١) •

والنف حوله الناس فى مجلسه فى المسجد والمنزل والكل عنده سواء فى توجيه العناية والاستفادة من علمه ونشر سنة النبى صلى عليه وسلم فوجد فيه العلماء أنه الأمل المرجو والمرجع الأصيل فأقبلوا عليه للاستفادة منه ، ومثل البخارى فى اخلاصه للعلم وقوته يهمله أن يرضى عنهم الناس ارضاء الله وأن يكون النفع عاما للجميع وليس لديه من الوقت فسحة للدرس الخاص وليس فى نفسه الدافع الى التقرب الى الأمير على حساب مصلحة الغير لأنه استمد جاهه واحترامه من سلطان اعلم ، وشعور العالم برضاء ربه وسيره فى طريقه وتأدية رسالته يكسب العالم سعادة كاملة وعزا وسلطانا وكيانا يرى نفسه فى وضع كريم غير محتاج الا لله وحده ، فلما طلب أمير بخارى خالد بن أحمد ان يأتيه بكتبه حتى يسمعها له ولأولاده فى قصره خاصة رفض البخارى أن يستجيب لطلبه وقال « فى بيت العلم والحلم يؤتى » فأفهمه أن العلم يسعى اليه فراسله الأمير طالبا أن يعقد مجلسا لأولاده لا يحضره غيرهم ويحضر الأولاد اليه فامتنع أيضا وقال « لا يسعنى أن أخص بالسماع قوما دون آخرين » • قال أبو سعيد بكر بن منير البخارى « بعث الأمير خالد بن أحمد الذهلى والى بخارى وخليفة ابن طاهر الى محمد بن اسماعيل أن احمل الى كتاب الجامع والتاريخ وغيرهما الأسمع منك فقال محمد

(١) مقدمة الفتح ج ٢ ص ٢٠٥ •

ابن اسماعيل لرسوله قل له : انى لا أذل العلم ولا أحمله الى أبواب ،  
 المسلاطين فان كان لك الى شىء منه حاجة فأحضرنى فى مسجدى أو فى  
 دارى وان لم يعجبك هذا فأنت سلطان فامنعنى من الجلوس ليكون لى  
 عذر عند الله يوم القيامة لأنى لا أكنم العلم لقول النبى صلى الله عليه  
 وسلم من سئل عن علم فكتمه الجم بلجام من نار • فكان سبب الوحشة  
 بينهما هذا (١) •

فأصر الأمير فى نفسه العداوة للبخارى وصار يتحين له الفرص  
 حتى وصله كتاب محمد بن يحيى الذهلى الذى لم يكتف بصرف الناس  
 عن البخارى فى نيسابور فلم يقنع برحيله منها رغبة فى تسكين الفتنة  
 فواصل عداؤه للبخارى بكتاباتة للولاة والعلماء بالتشجيع على البخارى  
 بمسألة اللفظ وزميه بالاعتزال جذافا وبهتانا وممن كتب اليهم من العلماء  
 أبو حاتم وأبو زرعة الرازى كما كتب الى الأمير خالد بن يحيى الذهلى  
 نائب الطاهرية ببخارى فلما وصل الأمير كتاب الذهلى انتهر الفرصة  
 للانتقام من البخارى وأراد أن يصرف الناس عن السماع منه وكان  
 البخارى فى جامع بخارى مجلس يجلس فيه لاملاء العلم اليهم وكانوا  
 يعظمونه جد التعظيم ويكرمونه أشد التكريم فلم ينفذوا ارادة الأمير  
 ورغبته واستمروا فى التلقى عنه فأمر الأمير عند ذلك بنفسه وساعده جابه  
 على اخراجه من بلده وقال أبو بكر بن أبى عمرو الحافظ وممن ساعد  
 على ذلك خالد بن أبى الوراق وغيره من أهل العلم ببخارى حتى تكلموا  
 فى مذهبه فنفاه عن البلد فخرج رضى الله عنه الى بيكند « بلده بين  
 جيحون وبخارى على مرحلة منها » ثم الى خرتنك قرية تبعد عنها  
 فرسخين أو ثلاثة وعند خروجه دعا عليهم فقال : اللهم أرهم ما قصدونى  
 به فى أنفسهم وأولادهم وأهائهم فأما خالد فلم يأت عليه الا أقل من شهر  
 حتى ورد أمر الظاهرية بأن ينادى عليه فنودى عليه وهو على أتان  
 وأشخص على أكاف ثم صار عاقبة أمره الى ما قد اثبتته وشاع من

(١) تاريخ بغداد ج ٢ ص ٣٢ طبقات السامعية ج ٢ ص ١٤ مقدمة البخارى للشيخ  
 عبد الفتى ص ٩٢ التهذيب لابن حجر ج ١ ص ٥٢ •

من سجنه في بغداد حتى أن مات ولم يبق أحد ممن ساعده في إخراج البخارى الا ابتلى شديد اليبلاء وأما حديث ابن أبى الورقاء فإنه ابتلى بأهله فرأى منهم ما يبجل عن الوصف وأما فلان أحد القوم وسماه فإنه ابتلى بأولاده وأراه الله منهم البلى (١) والبخارى في موقفه هذا يمثل عزة العلماء وتوكلهم على الله واستمدادهم القوة والعزة من الله وحده وقد وصل بطهارته وعلمه وصفاته الخلقية الى درجة يدعو الله فيستجيب له .

### مكانة البخارى في عصره

ان أبا عبد الله البخارى بعلمه وعقله وخلقه ودينه وصل الى درجة رفيعة في الكمال الانسانى أجبرت الدنيا بأن تتطلع اليه وأنطقت الألسن والقلوب بالثناء عليه .

ورغم نباهة شأن شيوخه وأقرانه وعلماء عصره الزاهر بالعلم فإنه استطاع أن يصل في سلم الارتقاء الى درجات عالية تصعب على أفذاذ العلماء .

وقد تتابعت الروايات في نباهة شأنه وتقدمه والشهادة له بالامامة في العلم . واكتظت كتب الطبقات بالاسهاب في هذا المعنى اسهابا لم يتوفر في أى ترجمة من تراجم العلماء .

والمقدرون له الشاهدون بفضلهم على حد تعبير الامام النووى هم الأعلام أئمة المسلمين أولو الورع والدين والحفاظ النقاد المتقون الذين لا يجازفون بالعبارات بل يتأملونها ويحررونها ويحافظون على صيانتها أشد المحافظات .

والناظر يجد أن هذه الروايات انما تمثل اجماع المسلمين في عصر البخارى اذ هي تشع من مراكز اشعاع العلوم بالعالم الاسلامى ولم يقتصر ذلك على أهل بلد بعينه وقد نسق الخطيب البغدادى هذه

(١) التهذيب ج ٩ ص ٥٢ لابن حجر .

الروايات وقسمها بحسب أصحابها الى فصول ممتعة تبين أن مكانة البخارى مكانة عالمية قد طبقت الآفاق وان علمه أشرق على دنيا الاسلام فى عصره وان له الأثر الحسن فى كل بلد بما تركه فيه من علم نافع وخلق كريم وذكر هذه الروايات الذهبى فى سير أعلام النبلاء وذكرها باسهاب الخطيب البغدادى تحت العناوين الآتية ( وصف البصريين ومدحهم للبخارى ) ( وصف أهل الحجاز والكوفة ) ( ذكر البغداديين فضله ) ( قول أهل الرى فيه ) \*

( ما حفظ عن أهل خراسان وما وراء النهر من القول فيه )

وحسبى أن أمر سريعاً قانعا بذكر نماذج من تلك التقريرات لكى يعطينا فكرة واضحة عن مكانة البخارى فى عصره وتدلنا على أنه نشأ للعلم عظيمًا مقدرًا منذ وجد وهذا انما يثبت فى النفوس قيمة مروياته ويبين لنا جليل عمله وفى طبيعة هذه النصوص القوة المعبرة التى لا تحتاج الى تعليق \*

عن حاشد بن اسماعيل يقول كنت بالبصرة فسمعت قدوم محمد بن

اسماعيل فلما قدم قال محمد بن ييبار : دخل اليوم سيد الفقهاء \* ويقول بندار محمد بن بشار : ما قدم علينا مثل محمد بن اسماعيل \* وعن أبى يوسف بن ريان قال : سمعت محمد بن اسماعيل يقول كان على ابن المدينى يسألنى عن شيوخ خراسان فكنت أذكر له محمد بن سلام فلا يعرفه الى أن قال لى يوما يا أبا عبد الله : كل من أثنيت عليه فهو عندنا الرضا - ويقول البخارى ما تصاغرت نفسى عند أحد الا عند على بن المدينى فيقول على زروا قوله هو ما رأى مثل نفسه \* ويبلغ من تقدير القوم له وثقتهم به أنه الجامع الحديث ، أن يقول عمرو بن على حديث لا يعرفه محمد بن اسماعيل ليس بحديث \* ويقول أبو معشر حمدوية بن الخطاب لما قدم أبو عبد الله محمد بن اسماعيل من العراق قدمته الأخيرة تلقاه من تلقاه من الناس وازدحموا عليه وبالغوا فى برهه فقيل له فى ذلك وفيما كان من كرامة الناس وبرهم فقال كيف ولو رأيتم يوم دخولنا البصرة \*

وقد كان معلوماً للقوم أن الحديث إذا انتخبه محمد بن اسماعيل  
اتسم بالصحة وأصبح ذلك شهادة بصحته •

عن أبي حاتم قال : سمعت محمد بن اسماعيل يقول « كان  
اسماعيل بن أبي أويس إذا انتخبت من كتابه نسخ تلك الأحاديث  
لنفسه وقال هذه أحاديث انتخبها محمد بن اسماعيل من حديثي • وقال  
أبو حاتم : سمعت حاشد بن عبد الله يقول • قال لى أبو مصعب أحمد  
ابن أبي بكر المدينى : محمد بن اسماعيل أفقه عندنا وأبصر من ابن  
حنبل فقال له رجل من جلسائه جاوزت الحد فقال أبو مصعب لو  
أدرت مالكا ونظرت الى وجهه ووجه محمد بن اسماعيل لقلت كلاهما  
واحد فى الفقه والحديث • وهذه الرواية إنما تعنى الشبه فى الفقه  
والحديث والا فملاحح الوجه والجسم لا تفيد تعظيما أو تكريما •

وعن محمود بن النصر أبى سهل الشافعى يقول : دخلت البصرة  
والشام والحجاز والكوفة وجالست علماءها فكلما جرى ذكر محمد  
ابن اسماعيل فضلوه على أنفسهم • وعن عبد الله بن أحمد ابن حنبل  
عن أبيه الامام أحمد أنه قال : ما أخرجت خراسان مثل محمد بن  
اسماعيل ويقول يعقوب بن ابراهيم الدورقى محمد بن اسماعيل فقيه  
هذه الأمة • وعن موسى بن هارون الحمال ببغداد يقول عندى لو أن  
أهل الاسلام اجتمعوا على أن يتصبوا مثل محمد بن اسماعيل آخر  
لما قدروا عليه — وعن أبى العباس محمد بن عبد الرحمن الفقيه يقول  
كتبت أهل بغداد الى محمد بن اسماعيل •

المسلمون بخير ما بقيت لهم  
وليس بعدك خير حين تفتقد

وعن وراثة سمعت محمد بن اسماعيل يقول : قال لى محمد بن  
سلام أنظر فى كتبي فما وجدت فيها من خطأ فأضرب عليه كى لا أرويه  
ففعلت ذلك وكان محمد بن سلام كتب عند الأحاديث التى أحكمها  
محمد بن اسماعيل رضى الفتى وعند الأحاديث الضعيفة لم يرض الفتى

فقال له بعض أصحابه من هذا الفتى ؟ فقال هو الذى ليس مثله محمد  
ابن اسماعيل — والمقصود ليس مثله فى عصره طبعاً \*

وبلغ من حب القوم لمحمد بن اسماعيل أنهم ينتمون أن يفدوه  
بأنفسهم حفظاً للعلم \* عن يحيى بن جعفر يقول لو قدرت أن أزيد فى  
عمر محمد بن اسماعيل لفعلت فإن موتى يكون موت رجل واحد وموت  
محمد بن اسماعيل ذهاب العلم \* ويقول فيه رجاء بن المرجى محمد  
ابن اسماعيل آية من آيات الله يمشى على الأرض وعن أبى عيسى  
الترمذى تلميذ البخارى صاحب الصحيح يقول : كان محمد بن اسماعيل  
عند بن منير فلما قام من عنده قال : يا أبا عبد الله جعلك الله زين هذه  
الأمّة \* قال أبو عيسى فاستجيب له فيه وعن الترمذى أيضاً قال لم  
أر أحداً بالعراق ولا بخراسان فى معنى العلل والتاريخ والأسانيد أعلم  
من محمد بن اسماعيل ويقول له تلميذه مسلم بن الحجاج لا يبغضك  
الا حاسد وأشهد أن ليس فى الدنيا مثلك وجاء مرة إليه فقبله بين عينيه  
وقال دعنى أقبل رجلك يا أستاذ الأساتذة وسيد المحدثين وياطيب  
الحديث فى الله وعن حاشد بن اسماعيل يقول : رأيت اسحاق بن راهوية  
جالساً على السرير ومحمد بن اسماعيل معه فأنكر عليه محمد بن اسماعيل  
شئياً فرجع الى قول محمد وقال اسحاق بن راهوية يا معشر أصحاب  
الحديث انظروا الى هذا الشاب واكتبوا عنه فإنه لو كان فى زمن الحسن  
البصرى لاحتاج اليه الناس لمعرفة الحديث والفقہ — وعن أبى بكر  
محمد بن اسحاق يقول : ما رأيت تحت أديم هذه السماء أعلم بالحديث  
من محمد بن اسماعيل البخارى — وعن عبد الله بن عبد الرحمن  
السمرقندى يقول رأيت العلماء بالحرمين والحجاز والشام والعراقيين  
فما رأيت فيهم أجمع من أبى عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى — وعن  
عبد المؤمن بن خلف التيمى قال : سمعت الحسن بن محمد يقول : ما رأيت  
مثل محمد بن اسماعيل ومسلم الحافظ لم يكن يبلغ محمد بن اسماعيل  
ورأيت أبا زرعة وأبا حاتم يستمعون الى محمد بن اسماعيل أى شىء

يقول يجلسون بجانبه فذكرت له قصة محمد بن يحيى فقال ماله ولحمده  
ابن اسماعيل \*

كان محمد بن اسماعيل أمة من الأمم وكان أعلم من محمد بن يحيى  
بكذا وكذا وكان محمد بن اسماعيل ديناً فأضلا يحسن كل شيء \*

ولهذه المكانة السامية المتأصلة في نفوس القوم كانوا يحرصون على  
علمه ويجتمع الألوفاً في مجلسه يتزاحمون عليه للانتفاع منه حتى في  
الطرقات يعدون خلفه انتظاراً لمجلسه وكانت له هذه المكانة الممتازة منذ  
مقتبل حياته يقول حاشد بن اسماعيل كان أهل المعرفة من أهل البصرة  
يعدون خلف البخارى في طلب الحديث وهو شاب حتى يغلبوه على نفسه  
ويجلسوه في بعض الطريق ويجتمع عليه ألوفاً أكثرهم ممن يكتب عنه  
وكان البخارى إذ ذاك شاباً لم يخرج شعر وجهه \* وقال قتبية بن سعيد  
جالست الفقهاء والزهاد والعباد فما رأيت منذ عقلت مثل محمد  
ابن اسماعيل البخارى وهو في زمانه كعمر في الصحابة — وقال محمد بن  
يوسف الهمداني وقد سئل قتبية عن طلاق السكران فدخل محمد بن  
اسماعيل البخارى وقال قتبية للأسائل هذا أحمد بن حنبل واسحاق بن  
راهوية وعلى بن المدينى قد ساقهم الله اليك وأشار الى البخارى ، وعن  
ابراهيم بن سلام قال ان الرتوت « الرؤساء » من أصحاب الحديث مثل  
سعيد بن مريم المصرى ونعيم بن حماد الحميدى والحجاج بن منهال  
واسماعيل بن أويس، والعدنى والحسن الخلال ومحمد بن ميمون صاحب  
ابن عيينة ومحمد العلاء والأشج وابراهيم بن المنذر الحزامى وابراهيم  
ابن موسى الفراء كلهم كانوا يهابون محمد بن اسماعيل ويقضون له على  
أنفسهم بالنظر والمعرفة وذكر أن الحاكم أبو عبد الله النيسابورى قال  
رحمه الله تعالى البخارى هو امام أهل الحديث بلا خلاف بين أئمة النقل  
وقال عبد الله بن محمد بن سعيد بن جعفر سمعت العلماء بمصر يقولون  
ما فى الدنيا مثل محمد بن اسماعيل فى المعرفة والصلاح ثم قال عبد الله  
وأنا أقول قولهم — وقال الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد  
ابن عقدة لو أن رجلاً كتب ثلاثين ألف حديث لما استغنى عن تاريخ محمد

ابن اسماعيل ويقول المحافظ بن حجر في نهاية فصل الثناء على البخارى  
ولو فتحت باب ثناء الأمة عليه ممن تأخر عن عصره لفنى القرطاس ونفذت  
الأنفاس فذاك بحر لا ساحل له •

وبعد ما تقدم من ثناء مشايخه عليه لا يحتاج الى حكاية من تأخر  
لأن أولئك أثنوا بما شاهدوا ووصفوا بما عملوا بخلاف من بعدهم فأن  
ثناءهم ووصفهم مبنى على الاعتماد على ما نقل اليهم وبين المقامين  
فرق ظاهر وليس العيان كالخبر •